آفاق الثقافة والفكرالاجتماعي السياسي في تصور محمد البشير الإبراهيمي

د. حفناوي بعلي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة عنابة

احتل البشير الإبراهيمي مكانة فكرية وثقافية بارزة لفتت أنظار الجميع مشرقا ومغربا ، وبوأته مكانة مرموقة بين أعلام الفكر والثقافة في العالم العربي . له مساهماته العديدة في التربية والثقافة وفي اليقظة الفكرية ، وفي أدب الرحلة شرقا وغربا ، وله نظرات وخطرات في المعتقد والرأي وفي " المنتقد " ، وخطابات في السياسة وخطب فوق المنابر؛ في عيون " الشهاب "وعيون" البصائر " .

له قدم راسخ في الرياسة وفي الإصلاح والكفاح ؛ وله باع طويل في الكلم والحكم ، زعيم البيان العربي الحديث بلا منازع ، وله صولات وجولات ونثرات ومقامات . تعرض للمضايقات والدعوات للسجون ، وللإقامات في الفيافي / أفلو وللاختيارات الصعبة / في الغرب الوهراني ، وللاختبارات والمنافي / في المشرق العربي . تعرض للبأس الشديد وللعسف والنكد والنكبات والملابسات ، إلى أن لقي وجه ربه مؤمنا محتسبا مجاهدا في الله حق جهاده .

كان الإبراهيمي الرجل الثاني والشخصية البارزة بعد الإمام عبد الحميد بن باديس ، فكان ساعده الأيمن وعضده في الحركة الإصلاحية ، فعمل على تأسيس المدارس وتعميمها في عموم الوطن وإرسال البعثات ورعايتها حق الرعاية . وخلف سلفه فكان خير خلف لابن باديس ، وكان الرئيس للجمعية ، وفي مستوى المسئولية واصل المسيرة التي بدأها أبو النهضة عاملا مناضلا وثائرا ؛ ناثرا خطيبا صقيعا .

كان الإبراهيمي شخصية وطنية مغاربية عربية ، إصلاحية فوق الاعتبارات الفردية . وظل صوته المدوي في المجالس والمجامع ، قوي الهمة معبرا عن آمال ومشاعر الأمة . وكان صاحب موقف وبصر حديد ، ورأي سديد في التنوير ، وعزيمة وقناة في التثوير لا تلين ، وشوكة وشكيمة لا تستكين ، كان ذا بصر ونظر في محاضراته ومناظراته .

كانت ثقافة الإبراهيمي ثقافة متينة رصينة ، قرأ محمد البشير / التنزيل الحكيم ، وحفظ جوامع الكلم والحكم من كلام البشير النذير . ودرس التربيع والتدوير ، والتحبير والتنوير ، وكتب وعيون التراث من الأغاني والأمالي ، وتمثلها فكان لها أبرز الأثر في كتاباته . ولم تكن كتاباته مجرد صدى لهذه الثقافة والموروث ، بل فيها ابتكار وأصالة . تستدعي الماضي وتنجلي في " عيون البصائر " ، وفي عيون الحاضر والناظر . تعبر عن وجدان وإيمان صاحبها وتعكس هويته وذاته ، متانة في العبارة وقوة في الأداء والإشارة .

لقد أحب الإبراهيمي وطنه وحدب على أبناء أمته وتعلق قلبه بها مربيا وناصحا وموجها ، مفكرا مدبرا ومثقفا . زعامته مؤثرة في الإصلاح السياسي والاجتماعي ، وفي التربية والثقافة والتثقيف والتهذيب ، إنه أستاذ الجيل والمربي الكبير ورجاء الأمة والنشء الجديد . ثاقب الفكر والنظر ، حاد البصيرة والبصر . إمام البلاغة

وصاحب الحكمة السائرة ، أمير البيان والتبيين ، والنجم الدائر في سماء الجزائر ، ودنيا المغرب والعرب والعجم .

آفاق الثقافة وصور المثقف .. في تصور البشير الإبراهيمي

الشيخ البشير الإبراهيمي بقدر ما هو كاتب اجتماعي ؛ هو أديب مفكر من الدرجة الأولى بشهادة أعماله نفسها ، كما تجسدها آثاره الحافلة بمختلف القضايا . ويلفت نظرنا بشكل واضح في الجزء الأول من آثاره ؛ موضوع ذو أهمية خاصة ، وهو بعنوان " واجب المثقفين نحو الأمة " . وفيها إشارة إلى الموضوع هو من محاضرة ألقاها في أحد نوادي تلمسان في الأربعينيات ، ووجدت مسوداتها بين أوراقه . وهذا يعني أنه ألقاها حين كان يقيم هناك للتدريس ؛ استجابة لطلب السكان الذين عرضوا قبلا على ابن باديس أن يقيم بينهم ، فاقترح لارتباطه بطلبته في قسنطينة / محمد البشير الإبراهيمي ، الذي رحب به السكان . وقد تفاعلوا مع دعوة جمعية العلماء ونهجها ، مما سبب متاعب جمة للشيخ البشير في مهمته ، الأمر الذي تطلب نضالا شارك فيه المواطنون بكل استماتة وإخلاص .[1]

في موضوع " واجب المثقفين نحو الأمة " ؛ بدا إحساس الشيخ الإبراهيمي شديدا بدور المثقف ومكانته ، وهو الرجل المهذب والمستنير الفكر المجوهر ، العقل المستقل الفكر في الحكم على الأشياء ، الجاري في تفكيره على قواعد المنطق لا على أساس

التخريف والتحريف ، المطلع على ما يمكن من شؤون العالم وتاريخه ، الملم بجانب من معارف عصره . وهو تعريف حرص على ما ينبغي للمثقف من عدة ، لأن دوره في مسيرة المجتمع ذو أهمية كبيرة ، لاعتبار المثقفين " في الأمم الحيةهم خيارها وسادتها وقادتها وحراس عزها ومجدها " ، تقوم الأمة نحوهم بواجب الاعتبار والتقدير ، ويقومون هم بواجب القيادة والتدبير . وهو هنا يحدد مكانة المثقف في مجتمع متحضر ، يجل علماءه لا يذلهم أو يتجاهلهم ويهمشهم ، لأن الأمم المتحضرة كانت دائما تابعة لعلمائها وأهل الرأي والبصيرة فيها ، تحتاج إليهم في أيام الأمن والخوف ، تحتاج إليهم في الأمن لينهجوا لها سبل السعادة في الحياة ويغذونها من علمهم وآرائهم بما يحملها على الاستقامة والاعتدال وتحتاج إليهم في أيام الخوف ، ليحلوا لها المشاكل المعقدة ويخرجونها من المضائق محفوظة الشرف والمصلحة . [2]

وهنا حدد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي دور المثقفين خاصة في محيط صحي له قيمته الاجتماعية والحضارية ، خال من ضروب التعفن والفساد والفوضى بمختلف أشكالها وألوانها . وهو ما يسهم في النجاح لجهود المثقفين في محيط يعتبرهم ، لأنهم هم حفظة التوازن في الأمم ، وهم القومة على الحدود أن تهدم ، وعلى الحرمات أن تنتهك وعلى الأخلاق أن تزيغ . وهم الميزان لمعرفة كل إنسان حد نفسه ، يراهم العامي المقصر فوق فيتقاصر عن التسامي

لما فوق منزله . ويراهم الطاغي المتجبر عيونا حارسة فيتراجع عن العبث والاستبداد . لم يكن المفكر البشير الإبراهيمي نخبويا مترفعا متعاليا في خطابات / المثقف ، كان ينظر إلى الأمور بميزان العقل في الفرق بين مثقف له دور حاسم عام ، وجاهل له دوره المحدد المختلف . حيث يكون الفرق بين موهوب يجب تشجيعه وحمايته لصالح وطنه في النهاية ، وبين خامل له حيزه على قدر إمكاناته الفكرية والذهنية . (3)

وهذه الصور للمثقف في نظر البشير الإبراهيمي تدعو إلى الحرص على قيام مجتمع يشجع أبناءه على طلب العلم والمعرفة ، لا مجتمع يسخر من الثقافة وأصحابها . فالوضع الصحي في مجتمع متطور يشجع على الطموح الشرعي لخير الإنسان وكرامته ، والوطن المزدهر بفضل مثقفيه وعلمائه . من هنا يأتي التعريض بمجتمع يسود أراذله ، ويطغى فيه تجار وسماسرة ومهربون ويعاني المثقف في وضعه ، ومن قيمه نفسها ممحا يعود بالضرر على الفرد والجماعة " ولا أضر على الأمم من الفوضى في الأخلاق ، والفوضى في مراتب الناس " . غير أن الإبراهيمي لا يعفو المثقف من مسئوليته كما لا يعفيه من التقصير في استكمال عدته ، فيتساءل : " هل فينا مثقفون بالمعنى الصحيح الكامل لهذه الكلمة ؟ " ثم يجيب بصراحة وعينه دائما على الوضع الذي كان عليه حال الشعب الجزائري .

يرى البشير الإبراهيمي أنه يوجد في الأمة الجزائرية اليوم مثقفون على نسبة حالها وعلى حسب حظها من الإقبال على العلم وعلى مقدار الوسائل التي تهيأت لها في ذلك . ولكن المثقفين منا قليل جدا في الكم والعدد ولا في الكيف والحالة ولا نطمع في زيادة عدد المثقفين إلا إذا زاد شعور الأمة بضرورة التثقيف ، وتهيأت أسبابه وأكثر مما هي مهيأة الآن ، ولا نطمع في زيادة الكيفية إلا إذا توحدت طرائق التثقيف وجرت على ما يوافق روح الأمة ؛ في دينها وعقائدها الصحيحة وتاريخها ولغتها وجميع مقوماتها . واتحدت الأهواء المتعاكسة واتفقت المشارب المختفة في الأمة ، وصحت نظرتها للحياة وصح اختيارها لطرقها المناسبة لوجودها . هنا يصل البشير إلى أم المعضلات في حياة المجتمع الذي تتجاذبه ثقافتان : " أن عندنا ثقافتين مختلفتين تتجاذبان من أمام وخلف ، إحداهما ثقافة إسلامية أساسها دين الملّة وقوامها اللسان العربي تقوم بها طائفة ، والثانية ثقافة أوروباوية أساسها اطراح الأديان وقوامها اللسان الفرنسي " .[4]

وللشيخ البشير الإبراهيمي على كلا الفريقين مآخذ غير مآخذ الخاص بالتمزق ، الذي أحدثته مواجهة بين لغتين ، لغة الوطن والانتماء ولغة الاحتلال . ويبقى الوضع في جميع الحالات غير طبيعي بل خطير خاصة ؛ عندما تكون لغة المحتل في موقع قوة ولغة المجتمع والوطن في موقع ضعف ، مما تترتب عنه مفاسد كثيرة ،

من أكبر المفاسد كما يقول الإبراهيمي " الاختلاف في وجهات النظر ، فتختلف الآراء في المصلحة الواحدة على رأيين متناقضين ، وفي المفسدة الواحدة كذلك . وهنالك تنقلب الحقيقة ويصير المثقفون بلاء على الأمة ، ويصيرون داءها بعد أن كانوا دواءها ، وأعداءها بعد أن كانوا أولياءها " . (5)

تنوعت كتابات البشير الإبراهيمي تنوعا كبيرا : في الدين والسياسة والتاريخ والاجتماع والأدب ؛ فعالج كثيرا من أمهات القضايا التي يفرضها الواقع تحت نير الاستعمار الفرنسي . فعالج في ذلك قضايا الدين والسياسة وعلاقتهما بالحكم ، ودور جمعية العلماء التاريخي في الوقوف أمام ضروب المسخ الاحتلالي ، كما عالج دورها في إشاعة الفهم الصحيح للدين والوطنية ، ودور اللغة العربية وعاء حضاريا للشخصية الوطنية ، وما يقوم به الدين في حماية المجتمع والوطن من التشويه والمحو . كما عالج مشاكل الشباب والثقافة والتثقيف ، وغير ذلك مما انفعل به الكاتب وعبر عنه بحرارة شديدة ، أبرزته ذا شعور بالمسئولية التاريخية والاجتماعية والأدبية ، ومما يجعله مفكرا مثقفا من الطراز الأول . (6)

كتب البشير عن مآثر الإمام ابن باديس العلمية والفكرية والثقافية ، عبر فيها عن عمق الإحساس في نفس الكاتب بالخسارة الجسيمة بوفاة الإمام الرئيس ، ومدى مكانته وأهميته

في مسيرة ونهضة الأمة الجزائرية والعربية والمغاربية . عبر عن مشاعر حب وتقدير ووفاء ، مشاعر منسكبة في مجرى أدبي مفعم بالصدق والإخلاص للرابطة النبيلة ، التي جمعت بين الرجلين في خدمة الوطن وأبنائه ، تعليما وتثقيفا وإصلاحا وإرشادا وتوعية ، وإعداد للخلاص من الاستعمار الرابض بكلكله على الشعب والوحش الذي يحاصر الوطن . ذكر روح التآزر التي كانت تسود المجتمع ، واستجابة الشعب للفكر الإصلاحي وللنهضة الفكرية والثقافية . يقول في مآثر ابن باديس العلمية والوطنية (.. مات الرسم وبقي الاسم ، واتفق الودود والكنود على الفضل والعلم .. ومثلك من بنى العقائد وشادها ، أعليت اسمها بالعلم والتعليم ، وصيرت ذكرها محل تكريم وتعظيم ، وأشربتها معاني الخير والرحمة والمحبة والصدق والإحسان والفضل ، فكنت لها نعم الراحم وكنت الرحيم " . [7]

ورغم التنوع الكبير في كتابات البشير الإبراهيمي ؛ اشتملت على آثار في الأمور السياسية والدينية والتاريخية والاجتماعية ، فقد بدا تميزه وفرادته في ذلك أسلوبا وفكرا وموضوعات . تجلي صورا أدبية وخطرات ثقافية وكلمات حارة جياشة بالصدق والإخلاص والحب والوفاء ، وأكثر حركية وفاعلية في الكتابة وفي التحرير والتنوير والتثقيف . وأبعد أثرا في تربية النفوس ، فجرتها لحظات تأمل وتدبر واشتياق واحتراق ، تمور بأحاسيس وطنية مفعمة بألوان

الطيف الثقافي والسياسي والاجتماعي ، ذات مراهي وأبعاد كبرى من منظور ثقافي وحضاري ومدني . يبث الروعة والارتياع على الوطن والأمة ، ويعرض مشاهد مشهودة من معاهد ومدارس قائمة ودارسة من الماضي والحاضر ، ويلقي على منابر مساجد ومنصات ومقاعد معاهد مواعظ وعلوم بفيض زاخر .

البشير الإبراهيمي .. والصحافة الثقافية والأدبية

نجد البشير الإبراهيمي في طليعة كتاب صحيفة (البصائر) البارعين . وهو بذلك ينبغي أن يعد أكبر كاتب عرفته البصائر ، وقد كان الإبراهيمي يعني بالجوانب الفكرية والثقافية والمذهبية والسياسية ، باعتباره رئيسا لجمعية العلماء . فكان يتناول مواضيع يكتب حولها مسلسلات تصل أحيانا إلى عشر مقالات . وكان ينشر فيها قليلا من الأحاديث الأدبية البحتة ، مثل " سجع الكهان " ، الذي لقي إعجابا شديدا ونجاحا بالغا ، وهي أحاديث قصيرة أدبية ، كتبت على طريقة المقامات . وكان الإبراهيمي شعر بأهمية هذه المقالات التي كان ينشرها في البصائر كل أسبوع ، فأذن بطبعها في مصر تحت عنوان (عيون البصائر) . وهو عنوان ملائم للحقيقة ، لأن كتابات الإبراهيمي أرقى ما كان ينشر في البصائر بل أرقى ما نشر في أي صحيفة

جزائرية ؛ خلال النصف الأول من القرن العشرين . ❖ البشير الإبراهيمي : البصائر ، العدد الأول ، الافتتاحية ، السلسلة الثانية .

كان الإبراهيمي يكتب في البصائر أسبوعيا ، وإلى أن التجأ إلى المشرق / مصر لظروف سياسية قاهرة . وكان ربما ألح على الموضوع الواحد فنشره في بضعة حلقات طويلة لما تستدعي من تفصيل . وكان لا يتناول النواحي الأدبية إلا لماما ، على حين أنه كان يفيض القول في المناحي الاجتماعية التربوية أو التعليمية ، وأحيانا السياسية . كما كان لا يتردد في خوض أحاديث الوطنية معا . بيد أن أسلوب الإبراهيمي في كل ذلك أسلوبا أدبيا متينا ، ولو بحثنا عن العلة لتبين لنا أن الرجل كان من أحفظ أهل زمانه ، فأتيح لذاكرته أن تختزن ما شاء الله من المعلومات ومن جيد القول . يخيل إلينا أن الإبراهيمي كان كاتبا اجتماعيا وسياسيا ، قبل أن يكون كاتبا أدبيا . وهذا الحكم يعود أساسه إلى التوفيق العظيم الذي كان يصاحبه ؛ حين يتناول مواضيع اجتماعية محضة أو مواضيع سياسية بحتة ، فقد صاحبه مثل هذا التوفيق في سلسلة مواضيع ليست ذات كنه أدبي ، دبجها يراعه ، أمثال : التعليم العربي والحكومة ، وفصل الدين عن الحكومة ، و " فلسطين " ، وسواها من المواضيع التي تتصل بهذه من قريب أو بعيد . [8]

ونحن لسنا نتردد في أن نذهب إلى أن الإبراهيمي قد بلغ في هذه المواضيع غاية القمة البيانية . فلا نجد فيها سجع الكهان ، ولا ذاك اللعب بالألفاظ . بل لا نتردد في أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنزعم أن الإبراهيمي إذا حق له أن يكون قائدا للنهضة الأدبية والصحفية في الجزائر ، فهو بهذه الأحاديث التي ينبغي أن تعد في الروائع ، وتعتبر في قمة البيان العربي الحديث . إن هذه الأحاديث طويلة جدا ، وهي تمضي على هذا النحو الرائع ، الذي لا تتعثر كلماته ، ولا تكبو عباراته ، ولا تثقل جملاته، وإنما يمضي هينا لينا ، عذبا سائغا ؛ فيه موسيقى لطيفة للأذن ، وفيه حلاوة لذيذة اللسان ، وفيه متاع للعقل عظيم ، وفيه منطق قوي ينافح عن الحق . وأن هذه الأحاديث بقدر ما تطول وتتقدم بقدر ما ترتفع في معارج البلاغة ارتفاعا ، يقول الإبراهيمي : " أيها العرب ، قسمت فلسطين فقامت قيامتكم ، هدرت شقائق الخطباء ، وسالت أقلام الكتاب . وانعقدت المؤتمرات وأقيمت المظاهرات ، فهل كنتم ترجون من الدول المتحدة على الباطل غير ذلك ؟ .. وكأنكم ما عمتم أن ذلك المجمع يمشي على أربع : ثلاث موبوءة ، والرابعة موثوءة .. " .[9]

الموضوع هنا سياسي " فلسطين " ، ولكن الأسلوب أدبي رفيع ، وخيال خصيب . ونحن نقرأ هذه المقاطع من أحاديث الإبراهيمي ، وهذا الحديث السياسي الصحافي معا ، فإننا لنشعر وكأن نفس

الإبراهيمي تتجسم في ألفاظ حديثه هذا ، لتمد الكلمات من حركات وأصوات ، وقوة وحياة . أننا لنشعر بانفعال الإبراهيمي ، وبقوة الصدمة ، وعظمة هول الموقف على نفسه الغيور . فإنه كان ناقما من هذه الأربع التي تزعم لنفسها ، إنها " كبرى " ، وما هي بالكبرى ، ولكنها تكابر الحق ، والحق أكبر منها ، وتتعالى عليه ولا بد من أن يعلو عليها . فإن هذه الدول لم تبرح نذير شؤم ولوم على الدول الصغيرة التي تريد لنفسها أن تظل صغيرة . ونحن نحسب أن الإبراهيمي لوجاء يكتب عن قضية جزائرية بحتة لما بلغ فيها أكثر مما بلغ ، ولما وفق أكثر مما وفق في كتابته عن فلسطين . وتدل على أن الإبراهيمي كان صحفيا ناجحا من الدرجة العليا ، وأنه كان يسخر قلبه وعاطفته ونفسه وأسلوبه جميعا في المواضيع السياسية التي كان يعالجها .

ومن أهم ما يجعل الإبراهيمي صحفيا ينحو منحى المربي المصلح، تلك الحاديث الرائعة التي كتبها حول " الشباب المسلم الجزائري كما تمثله لي الخواطر " . فإن الإبراهيمي يتجلى هنا أبا حكيما ، ومربيا مجربا ، ووطنيا فاضلا خيرا . ولكن يجب أن لا ننسى أن الإبراهيمي، كان أديبا في كل هذه الجوانب من خلال الأسلوب . فالأسلوب هو هو ، واللهجة حارة هي هي ، والصور جلبية ، وهي مطبوعة بطابع الإبراهيمي الشخصي . ولذلك فإننا نجد النغمة الأدبية تهيمن على هذه الأحاديث، التي دبجها حول

الشباب الجزائري المثالي . فقد حاول أن يرسم المثل الأعلى للشباب الجزائريين . وهكذا نجد أحاديث " الشاب الجزائري " ذات شقين : شق أدبي ، وشق تربوي ، والجانب الأدبي واضح جدا في هذه الحاديث من حيث التعبير الراقي . والجانب التربوي واضح أيضا من حيث التوجيه المقصود الذي كان الإبراهيمي يستمد أصوله من منابع الأصالة . (10)

أما الإبراهيمي الصحفي المصلح ، فيتجلى في كثير من الأحاديث ، ومن العسير في هذه الدراسة أن نتتبع كل العناصر الإصلاحية ، التي كان ينادي بها في مثل أحاديثه : الشباب والزواج الطلاق ، فصل الدين عن الدولة . فالذي يتأمل هذه الأحاديث الصحفية يجد الإبراهيمي فيها مصلحا اجتماعيا من الطبقة الأولى فقد تناول الأسرة والشباب ، واللغة والهوية ، وخاض السياسة خوضا عنيفا ، ولم يفرط في ذات الأدب أثناء ذلك . فتوزعت جهوده وتناثر نشاطه ، فلم يستطع أن يفرض وجوده في لون من هذه الأوان الثقافية التي خاض فيها . كل ذلك يجعلنا نذهب إلى أن الإبراهيمي لا يعد أديبا صحفيا فحسب ، ولكن يجب أن يعتبر أحد مفكرينا المعاصرين . فقد كان الإبراهيمي إذن : صحفيا ، ومصلحا اجتماعيا ، مربيا روحيا ورجل سياسية ، وعالم دين ، إلى جانب كونه مثقفا أديبا ممتازا من الصنف العالي والرفيع . ولا ننكر بأن الإبراهيمي كان أكبر كاتب في الجزائر خلال

النصف الأول من القرن العشرين ، ولا سيما ابتداء من نهاية الأربعينيات ؛ حين تألق نجمه في البصائرالثانية.

البشير الإبراهيمي والتواصل الثقافي العربي / المغاربي

نشر البشير الإبراهيمي العديد من المقالات والخطب والكتابات خارج الجزائر في صحف ومجلات ، وألقى الكثير منها في جامعات وإذاعات : عربية وإسلامية . نشر أكثر أعماله في صحف الجمعية ، وكذا في مجلات وصحائف الشرق : المنهل ، منبر الشرق ، الإرشاد ، الأهرام . كما ألقى بعضها محاضرات في معهد الدراسات العربية العالية بجامعة القاهرة . وكشفت سلسلة من المقالات عن رحلاته / أدب الرحلة ؛ حيث رحل إلى مصر وباكستان ، مرورا بباريس . وقد حجز له مكتب الجامعة العربية في القاهرة غرفة ، حيث شرع يستقبل رجال الفكر والأدب والسياسة ورجال الإعلام . كما انطلق يزور بعض المعالم ، وزيارة جامعة القاهرة بالخصوص كإحدى المفاخر العربية في الثقافة والعلم . " أحسست وجودي تضاعف مليون مرة بوجود هذه الجامعة في بلد عربي " .[11]

انصرف جهد البشير الإبراهيمي في رحلاته إلى الاهتمام بشؤون العالم العربي والإسلامي عموما ، والحرص على معرفة الأوضاع الثقافية والفكرية . كل ذلك عكس حيوية هذا المثقف الجزائري ، ورغبته في السياحة والاطلاع . الذي بدا أنه لا يطلبها

لذاتها بقدر ما يطلبها وسيلة للتثقيف ، وأداة لإغناء تجاربه بالحياة والناس ، والمجتمعات والأوطان . كما يستغلها لخدمة وطنه ، للتعريف به والدفاع عن قضيته في الحرية والاستقلال . فبدت في هذه الرحلات روح الكاتبة المثقف / الإبراهيمي ، روحه الوطنية وشخصيته وهويته . كما بدت روح الاطلاع لديه والسياحة في الأرض ، للاتصال بالعلماء ورجالات الثقافة والفكر ، وزعماء الحرية وأنصار قضايا السلم والعدالة وتحرر الشعوب . ومعرفة نفسية المثقف من شباب الأمم الإسلامية والأمة العربية . يقول عن دواعي الرحلة (.. دواعي هذه الرحلة كثيرة ولكنها ترجع إلى أصل واحد . ومثيراتها في نفسي قديمة العهد ، تتصل بما ركب في طباعي من حب الاطلاع والبحث ، خصوصا في شؤون الشعوب الإسلامية) .[12]

رحل محمد البشير الإبراهيمي إلى المشرق العربي خلال ثمان وتسعمائة وألف ، فاستقر بربوع الحجاز ، وبالمدينة المنورة بالذات ، فكان يلقي الدروس هناك . وكان أثناء ذلك لا يفتأ يناظر بعض العلماء الحجازيين ، أو من يقطن الحجاز مجاورة للبيت العتيق ، ويناقشهم في آرائهم . ومن اتصل بهم وعايشهم معايشة علمية هناك الشيخ يوسف النبهاني . وممن زارهم الإبراهيمي واتصل بهم في المدينة الشيخ أحمد البرزجي الذي حاول أن يجيز الإبراهيمي كذلك ، وكان يشهد دروسه ، فكان كل واحد معجبا بالآخر .

ولكن الإبراهيمي أقصي من أرض الحجاز ، فيمم وجهه شطر الشام ، ثم استقرت به النوى بدمشق ، حيث انتصب هناك للتدريس بالمدرسة السلطانية ، التي كانت تشبه المعاهد العليا ، ومكتب عنبر ، وممن تتلمذ عليه هناك جميل صليبا ، الذي كتب يقول عن الأيام التي مضاها تلميذا للإبراهيمي : " .. فأعجبنا بسعة علمه ، وقوة ذاكرته ، واستقامة منهجه ، لأنه كان يملي علينا قصائد المتنبي والبحتري وأبي تمام على ظهر قلب من أولها إلى آخرها ، ويقرب معانيها منا بالتفسير المحكم ، والشرح الدقيق ، والتحليل الأدبي الجميل ، حتى ولد في نفوسنا حب اللغة العربية وآدابها " . (13)

ويعود الإبراهيمي إلى الجزائر ، ليناضل فيها ، فيعلم ، ويصلح ويربي ، ثم يعود أدراجه مرة أخرى إلى المشرق العربي لغايتين : التعريف بالقضية الجزائرية وعدالة مطالب الشعب الجزائري ، وإبراز خصائصه وأصوله القومية . وكان في رحلته الثانية متنقلا أبدا بين العواصم العربية لا يستقر له قرار . وكذا إجراء الاتصالات بالحكومات العربية لتقبل البعثات العلمية الطلابية التي كانت ترسلها جمعية العلماء الجزائريين إلى المشرق . والحق أن هذه البعثات التي أسهم فيها الشيخ بحظ وافر ، وأشرف عليها شخصيا ، هي التي أتاحت للجزائر أن تسترد شخصيتها العربية . حيث عاد الطلبة من الشرق إلى وطنهم / الجزائر ،

وشرعوا يبثون رسالة الحرف العربي بأصالة وكفاءة . كما ساهموا أيضا أثناء ثورة التحرير بالتعريف بالقضية الجزائرية ، فكانوا ينشرون المقالات بالصحف والمجلات العربية .[14]

ويذكر أن حادثة وقعت للإبراهيمي دون أن يعلم بها ، وذلك في بغداد حين احتفلت الحكومة بذكرى ابن سينا ؛ فقد أجلس المنظمون الشيخ في المقام الأول مع الوزراء والسفراء ، من حيث أجلس المستشرقون والعلماء الأوروبيون في الصفين الثاني والثالث . فاستاء المستشرق الفرنسي لوي ماسينيون ، وعزم على أن يحتج لدى الحكومة العراقية على تقديم الإبراهيمي عليه . ويبدو أن علة هذا الحقد على الشيخ كانت تتمثل في النزعة الاستعلائية التي كان الفرنسيون ينظرون منها إلى الجزائريين من جهة ، ثم ما كان الإبراهيمي كتب يوما في البصائر من أن ماسينيون ، هو الذي أوعز إلى الرسميين الفرنسيين كيما يحرموا " الجزائريين من حق الاستمتاع بأوقاتهم " . فهذه الحادثة لها دلالتها الخاصة ، وهي تبرهن على المنزلة الكريمة التي كان الشيخ يحظى بها في المشرق العربي . كل ذلك يعود إلى مكانته وقيمته العلمية والثقافية .[15]

ومن المعلوم أن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي كان أحد القلائل من أعضاء جمعية العلماء الجزائريين ، ومن المصلحين والأدباء والكتاب الذين لم يدرسوا بجامع الزيتونة ، الذي كان منارة تخرج منها معظم هؤلاء ، وفي المقدمة الشيخ عبد الحميد بن

باديس أحد نوابغ الزيتونة ، ورائد الحركة الإصلاحية في الجزائر . ولكنه وإن لم يدرس بهذه الجامعة بصورة مباشرة ، فقد كانت له بالزيتونة صلة وأمشاج ، وكان من أكثر المتعاطفين معها ، ومن أشد المعجبين بها ، والمنشغلين بما يجري فيها من أحداث وتطور وإصلاحات .

هذا إضافة إلى أن البشير الإبراهيمي كان يتحمل مسئولية الإشراف المباشر على توجيه الطلبة الزيتونيين المهاجرين إلى تونس . وكان شديد الاهتمام بقضاياهم ، منشغلا بأوضاعهم ، كثير الاتصال بهم سواء في الجزائر أو تونس . وبحكم الصلات المتعددة كان الإبراهيمي يعتبر نفسه معنيا بحكم ما يجري في تونس من أحداث سياسية وعلمية وفكرية ، متابعا لها ، معالجا لأهمها ؛ في مقالاته التي كان ينشرها بجريدة (البصائر) ، مفسحا المجال لنشر الأخبار العامة والخاصة المتعلقة بهذا الجزء من المغرب العربي ذلك ان تونس كانت في نظر المصلحين وفي نظر الإبراهيمي ملتقى العلماء والرحالين التونسيين ، الذين كانوا يؤمون الجزائر للاتصال والتحاور مع رجال الإصلاح ، والتعرف على أحوال هذا القطر الشقيق والكتابة عنه ، والتعريف به في المجلات والصحف التونسية .[16]

وهكذا ما انضم الإبراهيمي إلى جمعية العلماء وأضحى أحد أقطابها ، فوجد أن معظم أعضائها من خريجي الزيتونة وجد نفسه

في المحيط الذي نشأ فيه ، وبين علماء تتلمذ وإياهم على نفس الأساتذة الذين اشتهرت بهم الزيتونة ، فكان انسجامه مع هذه الحركة انسجاما تلقائيا . لقد كان أول اتصال الإبراهيمي بتونس وبالزيتونة منذ نعومة أظافره إبان إقامة أسرته بالمدينة المنورة أين تتلمذ إلى أحد أقطاب المعهد ، وهو الشيخ محمد العزيز الوزير الذي رعى نشأته العلمية الأولى ، وتعرف من خلاله على مكانة الزيتونة ، وعن طريق هذا العالم توثقت صلته بها ، وأصبح من المفاخرين بفضلها رغم عدم تخرجه منها ، ومن المباهين بشرف الانتساب إليها كلما دعا الأمر إلى ذلك ، يقول : " فأنا لم أتخرج من الزيتونة ، ولم أقرأ في الجامع حرفا ، ولكنني تخرجت بالمدينة المنورة على أضواء كواكب الزيتونة في وقته ، ولا أحابي محمد العزيز الوزير التونسي رحمه الله ، فكانت لي بسببه صلة بالزيتونة مرعية المتات آمنة الانبتات " . (17)

وبفضل تلك اللقاءات والزيارات ، وهذا الدور الذي قام به الإبراهيمي على أكمل وجه نشأت جمعية (الطلبة الجزائريين الزيتونيين) ، بتحريض من الإبراهيمي نفسه إثر اجتماع عقده بالعمال والطلبة في أحد أحياء العاصمة التونسية . إذ أشار إليهم الإبراهيمي بالكتابة في الصحافة التونسية ، إظهارا لما يكابدونه من أتعاب وأوصاب . ومما لاشك فيه أن خطة الإبراهيمي التي كانت تقوم على إنشاء خلايا وطنية طلابية ممثلة في هيكل

تنظيمي يجمع شتات الطلبة ويرعى شؤونهم ، ويوكل أمر التعريف بالجزائر ، وربط جسور التعاون بينها وبين تونس ، ويكون بمثابة السفارة الدائمة لجمعية العلماء في هذا القطر الشقيق قد حققت غايتها المنشودة ، والهدف المرسوم لها . وتنفيذا للخطة التي سنها الإبراهيمي ، قامت الجمعية واشتركت في العديد من النشاطات الفكرية والاجتماعية والسياسية العامة . [18]

ونتيجة للموقف الإيجابي الذي وقفه الشيخ الطاهر بن عاشور من قيام المعهد الباديسي وحماسه لهذا المشروع ، ومد يد العون له بمختلف الوسائل والطرق ،واعتباره فرعا من فروع الزيتونة المنتشرة في المدن التونسية . نجد الشيخ البشير الإبراهيمي يبادر إلى فتح صفحة جديدة مع الزيتونة ومع الشيخ الطاهر بن عاشور بالذات ، ويجرد قلمه للتنويه به والإشادة بعلمه ومكانته في أكثر من مناسبة ، معتبرا إياه أحد أعمدة الإصلاح ، وعلما من أعلام التاريخ المعاصر ، قائلا عنه : " الأستاذ الكبير الشيخ محمد الطاهر بن عاشور علم من الأعلام الذين يعدهم التاريخ المعاصر من ذخائره ، فهو إمام متبحر في العلوم الإسلامية ، مستقل في الاستدلال لها ، واسع الثراء في كنوزها فسيح الذراع في تحملها ، نافذ البصيرة في معقولها ، واسع الاطلاع على المنقول منها ، أقرأ وأفاد . وتخرجت عليه طبقات ممتازة في التحقيق العلمي ، وتفرد بالتوسع والتجديد لفروع من العلم .. " . [19]

ورغم إكبار الشيخ الإبراهيمي لمكانة الطاهر بن عاشور ، والاعتراف بأفضاله على الجمعية وعلى معهد ابن باديس بالذات ، والإشادة بعلمه وخصاله فإن هذا الإعجاب وهذا الوفاء لم يمنعاه في كثير من الأحيان من إبداء آراء جريئة ومواقف حاسمة من الإدارة الزيتونية ، ومن وضعية التعليم الزيتوني بصفة عامة . ونقد البرامج التي يقوم عليها ، وتقدم النصائح رغبة في تطويره ، والخروج به من مجرد الاقتصار على تدريس العلوم الشرعية لاستيعاب مجالات علمية أخرى معاصرة ، مما كان يسميه علوم الحياة . مساهما بهذه الآراء في النقاش الذي كان يدور بين علماء الزيتونة حول طرق إصلاح التعليم بهذا المعهد ، معاضدا الجهود التي كان يبذلها هؤلاء ، مساندا مطالبهم الشرعية ومعركتهم ضد الإدارة الاستعمارية ، التي تماطل في إجراء هذا الإصلاح خوفا من تبعاته . ذلك أن معركة إصلاح التعليم الزيتوني كانت تعني الجزائريين مثلما كانت تعني التونسيين بنفس القدر .[20]

وهكذا نجد علاقة الإبراهيمي بتونس ؛ وزيتونتها وبرجالاتها وبصحافتها وجمعياتها ، ونشاطاتها العلمية الثقافية والسياسية حاضرة بقوة في كتاباته وفعالياته وممارساته وجهوده واهتماماته . كانت له بمشائخها صلات وطيدة ، باعتبار أن حركة الإصلاح في الجزائر انبثقت وقامت واعتمدت أساسا على خريجي هذا المعهد وتوثقت بقيام معهد ابن باديس الذي كان الإبراهيمي مديره ورئيسا

للجمعية ، والذي كان فرعا من فروع الزيتونة ، يتبع في جمنيع برامجه وامتحاناته ودروسه المقررة في الجامع ، ويشرف على امتحاناته .

البشير الإبراهيمي .. ومعالم الفكر السياسي والاجتماعي

لقد تميزت تجربة الإبراهيمي السياسية بالتفرد والخصوصية سواء في جانبها النظري أو العملي ، لأنها كانت تخضع لتصور معين مرتبط إلى حد بعيد بأبجديات العملية التغييرية التي كان يمارسها في الواقع الجزائري . نحاول أن نكتشف أهم الجهود السياسية التي خدم بها أمته ، ثم نجلي أهم المعالم لفكره السياسي والأبعاد والدلالات السياسية . الأمر الذي سيسمح بوضع هذه التجربة في إطارها الحضاري والتاريخي . لم يكن رجوع الإبراهيمي إلى الجزائر مجرد عودة إلى أرض بعد طول غيبة وغربة بل كان ذلك أول خطوة عملية لتنفيذ بنود مشروع التغييرالذي تم الاتفاق عليه بينه وبين ابن باديس بالمدينة المنورة .

وكان واضحا منذ البدايةأن هذا العمل التغييري لا يكتسي ؛ بأي وجه من الوجوه صبغة سياسية . فقد كان التركيز بالدرجة الأولى على الإصلاح الديني والثقافي ، وكان أمر مقصودا لذاته ، لاقتناع ابن باديس والإبراهيمي أن التربية والتعليم هما الطريقة المثلى لانتشال المجتمع الجزائري من واقعه البائس . غير أن الواقع الاجتماعي والسياسي كان في تغير مستمر ، والوعي الوطني في

نمو متصاعد بتأثير الحركة الوطنية بشقيها الثقافي والسياسي من جهة ، والأحداث العالمية المتوالية من جهة أخرى ، فرضا على جمعية العلماء نوعا من التغيير في السياسة لكي تتجاوب مع متطلبات المرحلة ، وتكون في مستوى تطلعات المرحلة .

في مطلع الخمسينيات سافر الإبراهيمي إلى باريس بمناسبة انعقاد جمعية الأمم المتحدة بها ، وهناك أجرى اتصالات مع الأحزاب السياسية الجزائرية والتونسية والمغربية الحاضرة . ودعاهم إلى اجتماع تحت رئاسته ، تألفت على إثره لجنة أطلق عليها " لجنة الاتحاد والعمل للشمال الإفريقي " . وصدر عنها ميثاق تعهدت هذه الأحزاب بتنفيذ بنوده ، والتي تتلخص في متابعة الكفاح ومضاعفته في سبيل تحرير بلدان الشمال الإفريقي ، وتنسيق العمل بين الأحزاب لتحقيق الأهداف ، والبحث الدوري في حالة شمال إفريقيا في ضوء الحوادث الداخلية والخارجية ، وتطورات الساحة العالمية .

وقد أكدت هذه اللجنة على الوحدة الروحية والتاريخية والجغرافية والثقافية لبلدان المغرب العربي الكبير ، وعلى المصالح العليا المشتركة التي تجمعهم . باعتبار النظام الاستعماري الواحد الذي يخضعون له ، والذي يمارس ضدهم سياسة استغلالية بقصد تحطيم كيان هذه الشعوب . وأسندت رئاسة اللجنة للإبراهيمي ، وسلمت وثيقة ميثاقها إلى السيد ترفيلي ، الكاتب العام لجمعية الأمم المتحدة . (21)

وخلال إقامة الإبراهيمي في باريس أقام مأدبة عشاء على شرف وفود الدول العربية المشاركة في اجتماع الأمم المتحدة ، باسم شعبة جمعية العلماء ببباريس . وخطب فيهم خطبة بليغة ، شرح لهم فيها وضعية الجزائر الحرجة في ظل الاحتلال الفرنسي ، والآمال التي تعلقها على الدول العربية لنصرتها ، والوقوف بجانبها في نضالها ضد العسف الاستعماري . ومن الشخصيات السياسية البارزة التي حضرت هذه المأدبة ، أمين عام جامعة الدول العربية عبد الرحمن عزام ، وفارس الخوري رئيس الوفد السوري ، وفاضل الجمالي رئيس الوفد العراقي ، الذي ذكر أن الإبراهيمي زاره في مقر إقامته بباريس ، وعرض عليه أن يطالب بإدراج القضية الجزائرية في جدول أعمال منظمة الأمم المتحدة .[22]

وبعد عودة الإبراهيمي إلى الجزائر كلفته الجمعية بالسفر إلى المشرق لجلب التأييد المعنوي لها . وعند قيام الثورة التحريرية كان مقيما بالقاهرة فابتهج بذلك ، واهتزت أعطافه فرحا وغبطة . وعرف أنه أصاب كبد الحقيقة يوم أن خاطب الوفود العربية أثناء مأدبة عشاء أقيمت بمناسبة استقلال ليبيا في أوائل الخمسينيات . نشط الإبراهيمي في هذا الإطار نشاطا كبيرا ، تمثل بصفة خاصة في أسفاره العديدة التي غطت معظم البلدان العربية والإسلامية . وفي اتصالاته الواسعة بالشخصيات السياسية البارزة في هذه البلدان ؛ ومنها مصر وسوريا والعراق ، والسعودية ، ولبنان ، والأردن ،

والحجاز ، وباكستان ، والهند وغيرها . وكان الهدف من رحلاته خدمة الثورة الجزائرية والتعريف بها . يقول : " لقد كنت ألقى في أسفاري أنواعا من التعب فلا يهونها علي ولا يغريني بالإقدام على غيرها إلا يقيني بأنها مزيد في قيمة الجزائر وقيمة جمعية العلماء ، وكنت ألقى من إخواني في العروبة والإسلام إقبالا علي واحتفاء بي احتفاء بالجزائر وبجمعية العلماء ، وسعدت بلقاء كثير من عظماء الشرق وعلمائه وأمرائه وقادة الرأي فيه " . (23)

في ضوء مفهوم الإبراهيمي المتميز لدلالات السياسة وأبعادها ، وانطلاقا من اهتمامه الملحوظ بكل ما يجد على الساحة الجزائرية من أحداث ، وما يموج فيها من اضطرابات . عالج عدة قضايا سياسية مختلفة كالتجنيس والإدماج وتعميق الانتماء الوطني ، والانتخابات النيابية والأحزاب السياسية الجزائرية ، وقضية الدستور الجزائري والمجلس النيابي . كان للإبراهيمي فيها باع طويل ، حيث صال وجال ، وحبر فيها عشرات المقالات في جريدة البصائر الثانية . تناول فيهاتلك القضايا من جميع وجوهها ، فلم يترك دقيقة ولا جليلة إلا وضحها ، وبين وجه الحق فيها . وهو يعد بذلك أشهر الكتاب الجزائريين على الإطلاق ، الذين عالجوا هذه القضايا على الإطلاق وبالتفصيل ، واستنفدت منه جهدا كبيرا امتد لسنوات طويلة .

انطلق الإبراهيمي من الواقع الذي يعيشه العالم في تلك الفترات ، ليثبت شذوذ تصرفات الحكومة الاستعمارية تجاه القضايا الوطنية ، وشؤون الجزائر ومؤسساتها ، وبشاعة الظلم الذي يتعرض له أهله من جراء تدخل الاستعمار في جميع أمورهم . وفي ضوء ما تقدم يمكن أن ندرك أن نضال الإبراهيمي قد اعتمد في شكله العام على المواجهة والصراع مع الاستعمار الفرنسي ؛ في سبيل الحصول على حقوق الجزائريين الدينية والثقافية ، باعتباره العدو الوحيد الذي كان يناصب الأمة العداء ، يستهدف كيانها الحضاري . وكانت المواجهة هي روح النشاط السياسي عنده ، وقطب الرحى الذي تدور حوله كل القضايا . ولم يشك لحظة واحدة خلال استقرائه لتاريخ الاستعمار ؛ فوجوده بالجزائر من خلال عساكره وأساطيله ليس سوى حلقة من حلقات الحروب الصليبية ، وقد وجد ما يؤيد وجهة نظره ، فيقول الإبراهيمي في الاستعمار : " .. لا يجد الباحث عناء في العثور على مصداق ما قلناه من تمكن النزعة الصليبية في هؤلاء " .[24]

اعتمد الاستعمار على مجموعة من الوسائل في تحقيق أهدافه في حرب الإسلام واللغة العربية والهوية الوطنية في الجزائر . وقد تحدث الإبراهيمي عن بعضها ؛ عندما حلل خطاب الحاكم الفرنسي الذي أثنى فيه على أعمدة الاستعمار في الجزائر : الجندي والمعلم ، والطبيب ، والراهب . وشكر لهم جهودهم في تدعيم نفوذه

واستقرار أقدامه في البلاد . وعلق الإبراهيمي على ذلك بقوله : " معنى هذه الكلمات عندنا أن فرنسا قذفت هذا الوطن بأربعة أنواع من القوى ، مختلفة التأثير ، متحدة الأثر ، متباعدة الميادين . ولكنها تلتقي على هدف واحد ، وهو التمكين للاستعمار ، وأنها حاربته بأربعة أصناف من الأسلحة البشرية ، أخفها فتكا وأقصرها مدى ؛ الجندي " . فالجندي يمثل القوة العسكرية التي ملكت الأرض واستعبدت الرقاب وأشاعت الرعب . والراهب يمثل الإرساليات التنصيرية التي أعقبت الحملة العسكرية ، لتستغل الأوبئة والمجاعات في سبيل تحويل الجزائريين عن دينهم . والمعلم يمثل الغزو الفكري الذي تمارسه المدرسة الاستعمارية في محاربة اللغة العربية والهوية الوطنية . (25)

كتب الإبراهيمي في قضية فصل الدين عن الدولة والحكومة الفرنسية عددا هاما من المقالات ، التي أحاط فيها بجميع جوانب الموضوع ، وغطى فيها القضية تغطية تكاد تكون كاملة ، بحيث لم يترك فيها ثغرة ينفذ منها الاستعمار أو تتسلل منها شبهاته وقد عبر عن هذه الكمية الهائلة من الكتابات ، التي خص بها هذا الموضوع ، فقال : " كتبنا في هذه القضية ما إن مداده ليكون غدران ، وما إن صحائفه لتغطي بضعة جدران " . ومما لاشك فيه أن الإبراهيمي قد دخل هذه المعركة بإيمان عظيم ، جعله يثبت فيها ثبوت الرواسي ، ويواجه الاستعمار في جميع مراحله . وأهم

الخصائص التي تجلت لدى الإبراهيمي في ميزة مقاومته : الإيمان بالمبدأ والثبات عليه ، والإصرار والتحدي ، والشجاعة والصراحة ، والحذر وإساءة الظن بالاستعمار ، والإحساس بنصرة الله .[26]

لقد صورالبشير الإبراهيمي في خطاباته السياسية فجيعة ضياع فلسطين ، وسقوطها في أيدي عصابات الصهيونية المدعمة بالقوة الغربية . وعبر عن هذا المصاب الجلل ؛ الذي حل بالأمة العربية والإسلامية من جراء اقتطاع هذا العزيز من أرضها . ففلسطين لها مكانتها الخاصة والمقدسة في نفوس المسلمين جميعا لأنها أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، ومسرى النبي الكريم ، والأرض الطاهرة التي باركها الله ووطئتها أقدام الأنبياء المرسلين . من أجل هذا كله احتلت فلسطين المكانة المميزة في نفوس المسلمين ، وظلت لقرون طويلة جوهرة مصانة ؛ في عقد الخلافة الإسلامية وسالت على أرضها دماء الآلاف من المجاهدين دفاعا عنها . فهي ليست ملكا للفلسطينيين الذين هم على أرضها فقط ، وإنما لكل مسلم وعربي حق فيها ، وواجب لها . من هنا أصبحت القضية الفلسطينية قية عربية وإسلامية وفي ذلك يخاطب العرب والمسلمين قائلا : " إن قضية فلسطين محنة امتحن الله بها ضمائركم وهممكم وأموالكم ووحدتكم ، وليست فلسطين لعرب فلسطين وحدهم ، وإنما هي للعرب كلهم .. وليست تنال

بالشعريات والخطابيات ، وإنما تنال بالتصميم والحزم والاتحاد والقوة " .[27]

هذا فيما يتعلق بمعالم الخطاب السياسي لدى البشير الإبراهيمي ، أما فيما يتعلق بالمسألة الاجتماعية والخطاب الاجتماعي عنده فيبدو أن الدوافع الاهتمام بهذا الجانب تنوعت وتعددت ، ولعل أهمها في نظرنا تردي الواقع الاجتماعي الجزائري بتأثير الأمراض الكثيرة ؛ والمتنوعة التي تعصف بالأمة ، جراء الرواسب التاريخية الموروثة عن قرون التخلف ، والهجمة الاستعمارية الشرسة التي استهدفت تحطيم الكيان الاجتماعي الجزائري ، وتمزيق نسيج العلاقات الاجتماعية . ولعل أبرز هذا التردي : ضعف الكيان الأسروي ، وتشرد الطفولة ، وضياع الشبيبة ، وتدهور وضعية المرأة ، وانتشار الآفات الاجتماعية ، واستفحال العادات السيئة والتقاليد الفاسدة .

وعلى هذا فقد كان للإبراهيمي في المسألة الاجتماعية آراء ونظرات عديدة ، تناولت مشكلات المجتمع الجزائري ، وأسهمت في إلقاء الضوء عل الظروف التي كان يعيشها الشعب الجزائري في ذلك الوقت . ودخل قلمه ميدان الإصلاح الاجتماعي ليدلي بدلوه فيما جد على الناس ، وقد كانت هذه الآراء امتدادا للجهود الإصلاحية التي سبقه إليها رواد التجديد الإسلامي والإصلاح العربي . لقد حاول الإبراهيمي أن يقدم رأيه في قضية تحرير المرأة ،

فأكد بادئ ذي بدء على أهميتها في المجتمع ، ثم أهميتها في التغيير ؛ فهي من الناحية الكمية تساوي نصف المجتمع ، وتمثل الشق الثاني له ، فإذا أراد المجتمع أن يتنصل من رواسب الجهل والتخلف والفقر ، وأن يطير نحو الكمال والازدهار ، لا يتم له ذلك إلا بجناحين : " الأمة كالطائر لا تطير إلا بجناحين ، وجناحاها هما الرجل والمرأة ، فالأمة التي تخص الذكر بالتعليم تريد أن تطير بجناح واحد ، فهي واقعة لا محالة " . (28)

أما أهمية المرأة في التغيير ؛ فيرى الإبراهيمي أنها تتمثل في كونها بحكم وظيفتها الطبيعية ، الإنسان الأقرب إلى الطفل ، عنها يأخذ أخلاقه ولغته وعاداته وسلوكاته ، أي أنها تشرف على تكوين شخصيته . فهي بالتالي المسؤولة عن الأجيال الجديدة ، أي المؤتمنة على مستقبل الأمة . فإذا تم إعدادها إعدادا صحيحا جاء الجيل الذي تربيه مستقيما ، وأسهمت بذلك في تفعيل عملية التغيير وتسهيل مهمتها . كما أناط بها رعاية البيت ومهمة زرع الرحمة والمودة الوئام بين أفراده . فإذا كانت المرأة في مستوى هذه المسؤولية العظيمة ، وجدت الاهتمام الكافي بها منذ نعومة أظفارها ، سعد المجتمع بالأبناء الذين يتخرجون على يديها ، وازداد تماسكه بتماسك أسره . وفي هذا السياق في إبراز دور المرأة يقول الإبراهيمي : " .. مغرسا للنسل ، وغارسه للخصائص فيه ، ومتعهدة له بالسقي والإصلاح " . (29)

ونخلص القول في قضية تحرير المرأة عند الإبراهيمي إلى أنه يؤمن بحرية المرأة في إطار القيم والشخصية العربية الإسلامية ، ويرفض تحريرها وفقا للمنظور الغربي . وبذلك وقف موقفا معتدلا فلم يكن من أولئك العلماء الجامدين المحافظين ، الذين يرفضون خروج المرأة وتعليمها مهما كانت الظروف ، ولا من أولئك المتأثرين بالحضارة الغربية ، المتشبعين بقيمها المادية الذين نادوا بإخراج المرأة من البيت ، ودعوها إلى التمرد على القيم والآداب العامة ، والتحرر من أخلاق أمتها . وقد كانت جهوده العملية تصب في هذا الخط ، فقد عمل على تعليم المرأة الجزائرية ، وتثقيفها ، وترقيتها ، وتهذيب أخلاقهاوطباعها وفقا للقيم العربية والأخلاق الإسلامية .

وقد كان المربي والمحلل الاجتماعي البشير الإبراهيمي يدرك المكانة المتميزة التي يحتلها الشباب في الأمة ، حين قال : " إن شباب الأمة هو الدم الجديد في حياتها " . فعلى عاتقه تقع أعباء النهوض بها ، وهو المرشح لتولي قيادتها وتوجيهها نحو التقدم والازدهار . إذا ما تم الإشراف على إعداده إعدادا جيدا ، وتوعيته بخطورة دوره في الحياة ، وحمايته من الأعراض والأمراض الأخلاقية والآفات الاجتماعية التي تضعف فاعليته، أو تعترض مسيرته للانحراف . لذلك نجده يركز بصفة دائمة على ضرورة الاهتمام بإعداد الشباب الجزائري ، باعتبار دوره الحيوي في المجتمع . وعلى أساسها تبني حاضرها ومستقبلها . فالأجيال

الصاعدة في الأمم الحية ترث من الآباء : " الأخلاق والآداب والأفكار والإحساسات والاتجاهات العامة والمشخصات الخاصة " . (30)

ويرى المصلح والمفكر البشير الإبراهيمي الأساس الذي ينبني عليه الجيل الجديد يتمثل في الأخلاق والعلم والوطنية . فقد كان يؤمن إيمانا جازما أن لا سبيل إلى إعداد الشباب الجزائري إعدادا صالحا وقويا يتناسب مع ظروف الجزائر المتردية آنذاك إلا بانتهاج هذه الطريقة وهذا المشروع الاجتماعي الثقافي الحضاري التربوي . فالأخلاق الفاضلة هي التي تحيي النفوس وتوقظ الضمائر ، وترفع الهمم ، وتجنب الشباب مصارع السوء ومواطن الرذائل . وبهذا تكون تطلعات الشباب شريفة ووسائله في الحياة مشروعة ، ومبادئه عالية ، ومصلحة الوطن في مقدمة مصالحه الشخصية ، وخدمة شعبه في مدار اهتماماته . وأما العلم فهو القوة الجبارة التي يفرض العصر الأخذ بها ، وإلا بقي الإنسان منبوذا مهمشا غريبا ، لا يعترف له بحق ، ولا يؤبه لشأنه ، ينظر إليه الأقوياء نظرة الوحش للفريسة . (31)

وقد كان الإبراهيمي كثير التنبيه إلى ضرورة تزود الشباب بالعلم والأخذ بأسباب القوة ، ومعايشة العصر ، ومسايرة التطور . وأما الوطنية فهي الأساس الثالث الذي كان يرى الإبراهيمي ضرورة إعداد الشباب عليه وبناء لحمته ووحدته التي تتحقق من

خلالها وحدة الأمة والشعب للوقوف في وجه عواصف التفرقة التي كانت تهب على المجتمع . وهكذا كرس الإبراهيمي حياته العلمية والعملية لخدمة الشباب الجزائري ؛ معلما ومحاضرا ، وخطيبا ومرشدا وناصحا . وقد فعل ذلك عن وعي وبصيرة وإيمان ثابت ، وأسهم مع إخوانه العلماء في إعداد الأجيال إعدادا متكاملا روحيا وعقليا وخلقيا وسياسيا . وهي الأجيال التي أشعلت الثورة الجزائرية المباركة ، وسجلت أسمى آيات البطولة والفداء والتضحية ، وقد اتت جهوده ثمراتها الطيبة بنيل الجزائر استقلالها وحريته .

وفي الختام ؛ يمكننا أن نقول إن هذه الصور للمثقف ، ولألوان الصحافة وضروب الثقافة التي مارسها البشير الإبراهيمي . ولتلك الرحلات التي قام بها فشرق وغرب ، واتصل بكبار العلماء والمفكرين والمثقفين والزعماء السياسيين . وكذا تلك الروابط التي استطاع المصلح أن يعقدها حيثما حل وارتحل ؛ المغاربية منها أو العربية والإسلامية . وكل تلك المعالم والآثار ، التي تشكلت منها ثقافة وفكر الإبراهيمي السياسي والاجتماعي ورؤيته وتصوراته ، هي الإشكالات الحقيقية التي أفرزها الواقع الجزائري ، ونبعت من صميم الحياة اليومية للمجتمع . فرضت عليه أن يحللها ويكشف أبعادها الخفية ، ويوجهها نحو وجهتها الصحيحة في إطار القيم الوطنية والشخصية القومية ، التي كانت

في كل الحالات وعبر كل المراحل تمثل المرجعية الفكرية التي كان يتحرك الإبراهيمي من خلالها ، وينطلق منها لمعالجة كافة الهموم والقضايا ، التي تعاني منها الأمة الجزائرية . وبذلك يمكن أن نقول إن فكر الإبراهيمي السياسي والاجتماعي يتميز بخاصيتين هما : الواقعية والمبدئية ، وهما اللتان كانتا تتحكمان في كل طروحاته الرامية إلى تغيير المجتمع الجزائري إلى واقع أفضل .

المصادر والمراجع والهوامش

(1) - البشير الإبراهيمي : آثار البشير الإبراهيمي ، الجزء الأول ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر – 1978 ، ص : 348

(2) - البشير الإبراهيمي : آثار البشير الإبراهيمي ، الجزء الأول ، ص : 353

(3) - البشير الإبراهيمي : آثار البشير الإبراهيمي ، الجزء الأول ، ص : 354

(4) - البشير الإبراهيمي : آثار البشير الإبراهيمي ، الجزء الأول ، ص : 355

(5) - البشير الإبراهيمي : آثار البشير الإبراهيمي ، الجزء الأول ، ص : 354

(6) - البشير الإبراهيمي : آثار البشير االإبراهيمي ، الجزء الثاني ، ص :

(7) - البشير الإبراهيمي : آثار البشير الإبراهيمي ، الجزء الأول ، ص : 659

(8) - البشير الإبراهيمي : عيون البصائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، عدد 21 ، ص : 225 ، 236

(9) - البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، الجزء الأول ، عدد 21 ، ص : 226

(10) - البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، الجزء الأول ، العدد 11

(11) - البشير الإبراهيمي : آثار البشير الإبراهيمي ، الجزء الرابع ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر – 1985 ، ص : 21

(12) - البشير الإبراهيمي : آثار البشير الإبراهيمي ، الجزء الرابع ، ص : 13

(13) - جميل صليبا : في ذكرى الإبراهيمي ، مجلة الثقافة ، العدد 8 ، 9 ، الجزائر – 1972 ، ص : 100

(14) - عبد الملك مرتاص : الجدل الثقافي بين المشرق والمغرب ، دار الحداثة ، بيروت – 1982 ، ص : 81

(15) - عبد الملك مرتاص : الجدل الثقافي بين المشرق والمغرب ، ص : 81

(16) - محمد صالح الجابري : التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت – 1990 ، ص : 34

(17) - البشير الإبراهيمي : جريدة البصائر ، 22 ماي 1936 ، ص : 256

(18) - محمد صالح الجابري : التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس ، ص : 38

(19) - البشير الإبراهيمي : عيون البصائر ، الجزء الثاني ، ماي 1936 ، ص : 628

(20) - محمد صالح الجابري : التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس ، ص : 43

(21) - البشير الإبراهيمي : آثار البشير الإبراهيمي ، الجزء الثالث ، ص : 137

(22) - محمد الفاضل الجمالي : الشيخ البشير الإبراهيمي كما عرفته ، مجلة الثقافة العدد 87 ، الجزائر - ص : 123

(23) - البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، جمع وتصدير أبو القاسم سعد الله ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر – 1994 ، ص : 17

(24) البشير الإبراهيمي : عيون البصائر ، ص : 188

(25) - الإبراهيمي : عيون البصائر ، ص : 83

(26) - البشير الإبراهيمي : عيون البصائر ، الجزء الثاني ، ص : 144 ، وانظر آثار الإبراهيمي ، الجزء الرابع ، ص : 275

(27) - البشير الإبراهيمي : عيون البصائر ، الجزء الثالث ، ص : 497 ، 494 ، 495

(28) - البشير الإبراهيمي : عيون البصائر ، الجزء الرابع ، ص : 239

(29) - البشير الإبراهيمي : عيون البصائر ، الجزء الرابع ، ص : 46

(30) - البشير الإبراهيمي : عيون البصائر ، الثالث ، ص : 49 ، 301

(31) - البشير الإبراهيمي : عيون البصائر ، الجزء الثالث ، ص : 216 ، 217 218